سبيل غصوب
Sabyl Ghoussoub

بيروت
على ضفاف السّين

دار الجديد
Dar al Jadeed

Dar al Jadeed | دَارالجَديْد

فيلا محسن سليم | حارة حريك | جبل لبنان
daraljadeedbeirut@gmail.com
w.w.w.dar-al-Jadeed.com

جميع الحقوق محفوظة لدار ستوك
©Éditions Stock, 2022

صدر هذا الكتاب بطبعته الفرنسيّة بعنوان:
Beyrouth-sur-Seine
نقله إلى العربيّة: قيصر غصوب وقلم دَارالجَديْد

ترقيم دولي: 978-9953-11-241-1
الطبعة اللبنانية الأولى، ٢٠٢٤

حقوق صورة الغلاف وصور الداخل من مجموعة
سبيل غصوب الخاصّة
©Sabyl Ghoussoub

خطوط أسماء العلم بريشة علي عاصي | الإخراج صنعة إليسار الرشعيني | التدقيق بعناية طاهر حمد، ماتيس ودار الجديد.

Cet ouvrage, publié dans le cadre du Programme d'Aide à la Publication Georges Schéhadé, bénéficie du soutien du Ministère de l'Europe et des Affaires Etrangères et du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France.

Cet ouvrage a bénéficié du soutien du Programme d'aide à la publication de l'Institut français.

طبع من هذا الكتاب ١٥٠ نسخة مرقّمة على نيّة أصدقاء الدار كما طُبعت ٤٠٠ نسخة برسم الراغبات والراغبين.

إلى أبي وأمّي.
إلى أخي، لــولاه ما أبصــرتُ النــور أبدًا.

«أريـد أن «أُخَتْيـرَ» فـي لبنـان وأن أسـبحَ فـي بحـره حتّـى آخـر يـومٍ مـن حياتـي».

أمي

«قـد أدفَـنُ فـي مقبـرة «الپــير لاشـيز» المـكان الوحيـدِ الّـذي سأشـعرُ فيـه أنَّنـي فـي بيتـي».

أبي

الشّخصيّات

قيصـر، أبي.
أميـن، أخـوه الصّغيـــر.
سلمى، أخته الصّغيـرة.

حنان، أمّي.
الياس، أخوهــا الكبيــر.
حبيب، أخوها الصّغـير.

يــالا، أختي الكبيـــرة.

الجزء الأوّل

أبي وأمّي وباريس | ٢٠٢٠

سألني أبي: «هل تريد أن أرويَ لكَ قصَّةَ حياتي بالعربيّة أمّ بالفرنسيّة؟» ثمّ أضاف: «هل تفهمُ العربيّة؟» وقد كان هو معلِّمي مُدَّة ثلاثِ سنواتٍ طوالٍ وكنتُ أعيشُ في كلِّ أمثولةٍ من أمثولاته جلجلةً لا نهاية لها.

وعلى إثرِ هذا الكلام علَّقتُ زرَّ التّسجيلِ على قميص بيجامَتِهِ الّتي يرتديها منذ أن كنتُ في الخامسةِ من عمري. بيجامةٌ مرتَّقَةٌ عِدَّةَ مرّاتٍ بأناملِ خيّاطين أكرادٍ وعراقيين وكوريِّين؛ بعضهم وضع أيضًا خِرقًا من جلدٍ لسدِّ الثّقوب. أمّا أمّي، فقد اشترت أكثر من دزِّينة منها جديدة لكنّه أبى أن يلبَس غيرها، هو الّذي اشتراها من لبنان. بيجامةٌ بحريَّةُ اللّون مؤلّفة من قميص وبنطالٍ قصير جدًا.

كان يجلِسُ على كنبةٍ وأمامه منظرٌ خلّاب لباريس يتوسّطه برج إيفل. استأجر أهلي شقةً في الطّابق الثّاني عشر من بنايةٍ بسبعةَ عشرَ طابقًا في الدّائرة الخامسةَ عشرةَ؛ انتقلوا عدّة مرات من طابق إلى آخر: من السّادس إلى التّاسع إلى الخامسَ عشرَ وأخيرًا إلى الثّاني عشر. كانوا في كلِّ مرَّة يسكنون في شقَّة مؤلَّفَةٍ من ثلاث غرف في آخر المَمَرّ عند خروجك من المصعد يمينًا أو يسارًا. تُقَدَّرُ مساحة شقتهم بسبعةٍ وستِّين مترًا مربعًا مؤلَّفة من دار وغرفتي نوم وحمّام. تسمِّيها أمي «قفص العصافير» لصغر الغرف المتداخلة بعضها

ببعض. كما أنّ للشّقة شرفتين ضيِّقتين من الجهتين يزرعهما أهلي لتبدوان كأنهما جُنَينة قريتهما في لبنان. نجدُ في هاتين الجنينتين أشجارَ الحامض والزّيتون والأفندي والبندورة الكرزيَّة والخيار والنّعناع؛ كلُّ هذا في مساحة صغيرة جدًّا. ولكن عندما تسطع الشّمس على الشّرفة، وتكون السّماء زرقاء، تظنُّ أنَّنا مقيمون في مكان ما، جنوبًا حيث الأشعة تداعبُ اللّيمون الحامض.

إنَّ هذه الجنينة فخر أبي الكبير. تلتمعُ عيناه عندما نتناول الغداء معًا، وتكون السّلطة من بندورة جنينته. كذلك يحبّ الحَمام حين يبتني عشّه في إحدى الشّجرات، وهو ما تكرهه أُمّي، لا شيء يزعجها في العالم إلّا هذا الحمام، «لأنّه يحمِلُ كلَّ أوبئةِ العالم». تردّد أُمّي «وأيضًا يوسّخ شرفتي وشبابيكي». غير أنّ لأبي رأيًا آخر: مرَّة في الأسبوع يشتري الخبز من المخبز، يقطِّعه بالمقص إربًا وهو جالسٌ في الدّار، ثمّ يضعه في كيس بلاستيكيٍّ، ومن بعد ذلك يقصِدُ المترو (قطار الأنفاق)، ويرمي الفُتات على الأرض، كمشة تلو كمشة، فيسرع الحمام إليه.

مرةٌ كنتُ شاهدًا على هذا المشهد، كان أبي يرتدي بدلةً مقطَّعة بمربّعات صغيرة سوداء، والحمام يطير مشكِّلًا دائرة حوله. أمّا المشاة فكانوا مبهورين بهذه الرّؤية، أمّا هو فبدا كأنّه من عبدة النّار: مجوسيٌّ أو نبيّ.

هو لا ينفكُّ يلعب بزرِّ التّسجيل لأنّه يكره الكلام المسجَّل، ولكن نزولًا عند طلب ابنه قبل. أمّا والدتي فهي في المبطخ

تُحضّـرُ لـي الفطـور. ففـي كلِّ مـرَّة أزورهـا، تقـدّم لـي الطّعـام، وفـي ظنّهـا أنّنـي هكـذا سـأمكث طويـلاً فـي شـقَّتها. لا تكـفّ عـن الـكلام، أمّـا نحـن فـلا نفهـم كلمـة مـن كلامهـا.

– هذا جنون لكثرة ما تتكلم أمُّك! هل تسجّل ما أقوله الآن؟

– نعم يا أبي.

– جيّد. والآن ماذا تريد أن أحكيَ لك؟

كنـت قـد حضَّـرت لائحـة بالأسـئلة الصّريحـة ولكننـي أمامـه أفقـد توازنـي ككلِّ مـرَّة.

– لا أعرف يا أبي.

– لا تعـرف؟ كيـف هـذا لا تعـرف؟ تعلّـق زرّ التّسـجيل علـى قميصـي ولا تعـرف مـاذا تريـد أن أقـول لـك؟ هـل تريـد أن أقـوم بالعمـل مكانـك؟ أعطنـي دفتـرك لأكتـب لـك الأسـئلة.

– طيِّـب... طيِّـب... أعـرف، أريـد أن تخبرنـي عـن وصولـك إلـى باريـس.

– وصلتُ بالطّائرة ونزلت في مطار أورلي.

– يا أبي!

– نعم؟

– بدون مزح.

– أنـا لا أمـزح، وصلـتُ إلـى مطـار أورلـي مـع أمِّـك فـي الحقيبـة، وقتهـا كانـت الحقيبـة تسـعها.

– «قيصر سدّ بوزك»! تصرخ أُمّي من المطبخ.

– تعـرف يـا سـبيل، يتابـع أبـي، اتصلـتُ بالنّجّـار أمـس ليأتـيَ ويوسِّـعَ بـاب المدخـل لأنّ أمّـك لـم يعـد بمقدورهـا أن تدخـل فقـد بدنـت وهـي مجبـورة الآن أن تدخـل بجانبهـا.

تدخـل أُمّـي إلـى الـدّار حاملـة صينيـة عليهـا اللّبنـة والزّيتـون الأخضـر والخبـز السّـاخن.

– آه! من أجل ابنك تقدّمين الأشياء كما يجب!

– هل تغار يا قيصر؟

إنّ أبـي يـأكل فطـوره بعـد أن يضعـه علـى طرّاحـةٍ قدّامـه. يتألّـف فطـوره مـن الخبـز الكامـل وجبنـة «البقـرة الضّاحكـة». علـى فكرة، فـي البـراد عشـرات مـن علـب الجبنـة الكيميائيـة. «أنظـر إلـى أبيـك لقـد اشـترى كمّيـات مـن هـذه الجبنـة وكأنّ الحـرب سـتقعُ غـدًا!» تكـرِّر أُمّـي دائمًـا قولهـا وهـي أمـام البـرّاد المفتـوح. إنّ أهلـي يحبّـون تـرداد الطّـرف نفسـها وأنـا لا أفهـم أبـدًا لمـاذا: هـل لأنّهـم بـدأوا يضيِّعـون أو للـذّة فـي الإعـادة؟ ثـمّ أنهـضُ لأعلّـق زرّ التّسـجيل علـى قميـص نـوم والدتـي. أحـاول أن أطـرح عليهـا سـؤالًا بيـن نشـاطين تقـوم بهمـا. إنّ أُمّـي صغيـرة، صغيـرة جـدًا وكمـا هـي عـادة النّـاس الصّغـار القامـة فهـي كثيـرة الحركـة. تذكّرنـي بنيكـولا سـاركوزي. هـي حاليًـا تبحـث عـن هاتفهـا الّـذي يـرنّ فـي الشّـقة كلّهـا.

«بحبّـك يـا لبنـان يـا وطنـي بحبّـك بشـمالك بجنوبـك بسـهلك بحبّـك» إن رنيـن هاتفهـا ليـس سـوى «بحبّـك يـا لبنـان» أغنيـة سـفيرة النّجـوم السّـيدة فيـروز، وهـي كنايـة عـن أنيـنٍ حزيـنٍ

يُزعـج أبـي ويُزعجنـي إلـى أقصـى الدرجـات. والدتـي لـم تعثـر بعـد علـى هاتفهـا النّقّـال الّـذي يـدقّ الآن دون انقطـاع، أظـنّ أنّهـا تلقّـت رسـائل علـى واتـس أبّهـا العائلـي الّـذي أسـمته عـن عمـد وإصـرار «لبنـان». هـذه الجمعيَّـة مؤلّفـةٌ مـن نحـو خمسـين عضوًا: إخوتهـا وأولادهـا وأولاد أعمامهـا وعمّاتهـا مـن الدّرجـة الأولـى والثّانيـة وحتـى الثّالثّـة، مـن لبنـان والولايـات المتحـدة وفرنسـا، وأقربـاءَ آخريـن وكذلـك بعـض الأشـخاص الآخريـن القريبيـن أو البعيديـن منهـا، كلّهـم يشـاركون فـي الحـوارات سـوى واحـد: أبـي الّـذي لا يملـك «سـمارت فـون»؛ إنّ هـذا العالـم الجميـل لا يتوقّـف عـن التّواصـل. يتراسـلون الصّـورَ المأخـوذةَ بيـن النّباتـات والأشـجار والمناظـر، صـورًا قديمـة للعائلـة وأفلامًـا فكاهيّـة لبنانيّـة أو أغنيـات رديئـة مصـوّرة.

تثـارُ أشـجانهم عندمـا يرسـل أحـد أقاربهـم الّـذي يسـكن لبنـان صـورة قريتهـم، فيمضـون وقتهـم يتذكّـرون هـذا البلـد الجميـل قبل الحـرب، أو تلـك الأزهـار الّتـي كانـت تعلـو فـوق الطّريـق السّـريع، أو ذاك القطـار الّـذي كان يحـاذي البحـر مـن الشّـمال إلـى الجنوب، وأحيانًـا يظهـر فيلـم قصيـر مدسـوس، لا أعـرف مـن أرسـله. أنـا شـخصيًا أُسْـكِتُ هـذا الواتـس أبّ منـذ خمـس سـنوات.

أتبـع والدتـي إلـى الـدّار حيـث يلاحـظ أبـي كاحلـيّ العارييـن: «ألم تلبـس كلسـات! ؟» يقـول لـي. إنّ حكايـة الجـوارب حكايـة طويلـة عنـد رجـال عائلتـي. فهـم لا يفهمـون كيـف لرجـلٍ أن يلبـس حـذاءً دون جـوارب. أذكـر يـوم دُفِـنَ أميـن فـي لبنـان وهـو أخـو أبـي

الأصغـر، كنـت قـد تجـرّأت وارتديـت بدلـة وحـذاءً ولكـن دون كلسـات. لاحـظ خالـي حبيـب ذلـك فوشـوش أبـي الّـذي ترجّانـي أن أرجِـع إلـى المنـزل وألبـسَ الجـوارب. وافقتـه الأمـر، وكنـت متأكـدًا أنّـه لـن ينظـر إلـى قدميَّ ثانيـة، ففـي رأسـه همـوم أكبـر. ولكـن خالـي حبيـب لاحـظ أنّنـي لـم آبـهُ لرجـاء أبـي فقـام وبـدأ يصـرخ فـي وسـط صالـون التّعـازي: «! مـا بتسـتحي تعمـل هيـك مـع بيّـك بهيـك وقـت؟!» فأجبتـه: «إنّكـم متخلّفـون، تُقيّدكـم تقاليدكـم الباليـة». مـن يرتـدي اليـوم بـدلات سـوداء فـي المآتـم؟ إنّكـم تشـبهون «المافيَوييـن الصّقلّييـن» ولكننـي عُـدْتُ وخَضَعْـت لإرادة والـدي ولبسـت الجـوارب كـي لا أضايقـه فـي ضيعتـه.

- إنّ ابنكِ يريد أن نخبِرَه عن وصولنا إلى باريس.
- ولماذا تسجّل كلامنا. ما هي غايتك؟
- هـو كتـاب. ألا تعرفيـن ابنـكِ؟ الغايـة منـه أن نبكـي علـى هـذه الحكاية.
- في أي سنة وصلنا إلى باريس يا قيصر؟
- سنة ١٩٧٤.
- لا، سنة ١٩٧٥.
- بالتّأكيد لا، سنة ١٩٧٤.
- أيلول ١٩٧٥.
- أيلول ١٩٧٤.

زواج أهلي في لبنان | ١٩٧٥

وصل أهلي إلى باريس في أيلول عام ١٩٧٥ عروسان تزوّجا للتّوِّ في كنيسة كفرعبيدا، (ساحل لبنان) ضيعة أمّي. كان زواجهما بسيطًا تحيطهما مجموعة من الأقارب «اختاروهما على الطّبليّة». اختارت أمّي شاهديها أخويها الياس وحبيب، أمّا أبي فقد اختار اخته سلمى وشاعرًا لبنانيّا، جوزف حرب، كان من أعزّ أصدقائه يومها (أكتب «يومها» لأنّه منذ ذاك اليوم وهو يغيّر كلَّ ثلاث سنوات «أعزّ أصدقائه» فهو لم يعد يتكلّم معه لأسباب يجهلها الأخير، وهكذا دواليك).

ارتدت أمّي فستانًا من الحرير ورديَّ اللّون، خاطته لها خالاتها، أمّا أبي فكان على هيئة مطرب تركيٍّ شيوعي: شعره طويل بشوارب كثّة وبنطال عريضٍ عُرف يومها برِجْلِ الفيل. صُوَرُ زواجِهما تُشْبه الأيقونات. في إحدى الصّور يبدوان جالسين على المقعد الخلفي داخل سيارة «كاديلاك» مستأجرة للمناسبة. أدارا وجهيهما نحو المصوّر. نرى رأسيهما من خلال الزّجاج الخلفي للسّيارة الأميركيَّة. مشهدٌ شبيه بأفلام قطّاع الطّرق الإيطالية النّيويوركيَّة. في صورة أخرى تبدو أمّي جالسةً على أريكةٍ قماشُها مزهَّرٌ، وخلفها كثير من الباقات لا أعرفُ أسماء أزهارها.

تبدو أمّي في هذه الصّور زهرةً بين الزّهور. أعترفُ أنّها في تلك الصور تبدو شابّة باهرةَ الجمال، أكانت ببنطال «الدّجينس» أو بفستان أو «مايو». متألّقة تشبه ممثلةً إيطاليَّة؛ أفهم الآن

لماذا وقع أبي في حبّها. أنا أيضًا كنت سأحذو حَذوه واقصِدُ شبّاكها كلّ يومٍ منشدًا لها أشعاري بالعربيّة. اعترفت لي أمّي بأنّها كانت تجده (قبل أن تسمعه ينشد قصائده) «غليظًا وقبيحًا بعض الشّيء». ولكنّها حين أصغت إلى كلامه، كلام الحب، ذابت. هي لا تزال تذكرُ هاتين القصيدتين:

«لو كان اللّه عادلًا | لكان وهب الأرضَ فصلين | كعينيكِ»

«أخذتُ يديها بين يديَّ | وحدّقت في البحر. | لو لم يكن البحر هنا | لكنُتُ غرقت...».

كانت تتخيّل أنّها ستعيش وتموت مع هذا الشّاعر. وأبي لم يكن شاعرًا فحسب، بل كاتبًا مسرحيًّا ومُخرجًا وصحافيًّا. لا يهدأ أبدًا. عندما كان صغيرًا منعه أبوه من العزف على البيانو (كان الاعتقاد السّائد أن هذه الألة حكرٌ على البنات) فكوّع نحو الكلمات ليؤلّف موسيقاه. فعلتِ الكتب فعلها، قَلَعَتْه من عائلته القرويّة، التّقليديّة المارونيّة. فتحت له القراءة آفاق بيروت فما إن غَزَتْهُ العشرون حتى بدأتِ الصّحف تتكلّم عنه كمؤلّف ومخرج واعد. اكتشفت هذه الأمور حين وجدتُ علب «الكوداك» الصّغيرة الّتي تحتوي على صورٍ بالأبيض والأسودِ مربّعة الشّكل عن «البروفات» الّتي أدارها. بسببها تعرّفت إلى خالي الصّغير، حبيب، الّذي طلب منه أبي أن يلعب دور السّكران. كان أبي يتخَلْوَع في كلّ الاتجاهات. يدوّر على كلّ الحِيَل لإدارة الممثلين. حينًا يركع وحينًا يقف على الطّاولة.

بـدا عملاقًـا فـي هـذه الصّـور، رغـم أنّ قامتـه لا تتعـدّى المتـر واثنيـن وسـبعين.

بعـد أن قـالا للكاهـن نعـم، قـرّر والـداي أن يعيشـا سـنتين فـي باريـس. كان أبـي يسـعى لنيـل دكتـوراه فـي المسـرح وأخـرى فـي الآداب العربيّـة مـن جامعـة السّـوربون. أمّـي الهائمـة بـه رافقتـه علـى أمـل أن يعـودا بعدهـا إلـى لبنـان ويشـتريا منـزلًا فـي بيروت.

الياس في باريس | ١٩٧٤

لـم يكـن أهلـي وحدهـم فـي باريـس. منـذ سـنة كان اليـاس، خالـي الكبيـر يعيـش فـي غرفـة متواضعـة واقعـة فـي الدّائـرة الخامسـة قـرب جامعـة السّـوربون عريـن المتضامنيـن ومـن كلّ أقطـار المعمـورة مـع قضايـا العالـم الثّالـثّ.

وجـدتُ بعـض الصّـور لاليـاس يلبَـسُ قميصًـا مخططـة وبنطـالًا واسـعًا عنـد الثّنيـة ونظّـارات ماركـة «راي بـان» علـى أنفـه، وهـو جالـسٌ فـي مقهًـى أو ممـدَّدٌ علـى أدراج كنيسـة سـان ـ إتيـان دي مـون قـرب البنتيـون، فـي المـكان نفسـه حيـث كان جيـل، الشّـخصية الرّئيسـيّة فـي فيلـم «ميـد نايـت فـي باريـس» لـوودي ألان، ينتظـرُ العربـة الّتـي سـتعيده إلـى زمـن مضـى وتنقلـه إلـى باريـس أيـام دالـي وهمنغـواي.

أمّـا أنـا ففـي كلّ مـرّة أمـرّ فـي هـذا المـكان، أتمنّـى لـو أنّ حوذيًـا يلقـي القبـض علـيّ ليعيدنـي إلـى باريـس زمـن أهلـي.

أتساءل مَن الّذي أخذ لالياس هذه الصّور. ربما عشيقته. من المؤكّد أنها ليستْ أمّي، كونها لم تكن قد وصلت إلى فرنسا عام ١٩٧٤.

وقعتُ ذات مرّةٍ على رسالة صغيرة كتبتها يوم مغادرته لبنان بعد أن رافقته إلى مطار بيروت.

عزيزي الياس،

أنا بانتظار اتصالك بفارع الصّبر. كلُّنا بخير هنا. لم يتغيّر عليّ شيء سوى غيابك، لكن تأكّد أنّنا مسرورون ومرتاحون. سأخبرك ماذا حدث بعد رحيلك: ودَّعْتَنا ومَشَيْت. أَعرِفُ أنّني لم أكن مرتاحةً قط وبصراحة كنت خائفة وقلبي يخفق. كنت واقفةً بين قيصر وحبيب ننظر إليك وأنا على أعصابي، ثمّ خرجنا إلى شرفة المطار وأنت تأخَّرت في ركوب الطّائرة، وهذا ما جعلني أعيش دقائق رهيبةً خاصةً وأنّ قيصرَ وحبيب بدآ يسخران منّي، وأخيرًا رأيناك ورأينا يدك تلوِّح لنا حتّى اللّحظة الأخيرة، تمنّيتُ أن تقلع الطّائرة، وحين أقلعت بكى أبي قليلًا.

وحين علت الطّائرة في الجوّ، ارتحْتُ وسُرِرتُ كثيرًا لأنّك خلّصت وانتهيت من كلّ هذه الأخبار الصّغيرة في لبنان، وقبل مغادرة المطار خابرنا أمّي وبدورها فرحت. أرجو أن يدوم مكوثك هناك وأن تخبرني بكل ما يحدث لك.

أحبّك.

أُختك

بعد عدَّة أسابيع دسّت أوراقًا نقديّة داخل ظرف ليشتري «دجنسات» وأحذية «كاوبوي» ودعمتها بلائحة من الأسطوانات ٣٣ دورة الكبيرة الحجم لشرائها لها من باريس:

داليدا | سلفاتور أدامو | أنريكو ماسياس | ليو فريه | نينو دي مورسيا | جورج براسنس | ميراي ماتيو.

الياس، الّذي كان يجاهر بنبرةٍ عالية وقويَّة أنّه قريب من الفلسطينيّين، فضّل الهروب من لبنان بعد طرده من إدارة الجامعة اللّبنانيّة الكتائبيَّة ؛ والكتائب حزب مسيحيّ تأسَّس في الثّلاثينات «إستوحى» مبادِئه من الأحزاب الفاشيَّة الأوروبيَّة. مؤسسه بيار الجميّل وصف حركته هذه خلال مقابلة مع محطّة تلفزيونيَّة فرنسيّة قائلًا: «إنّه حزب لبنانيّ، أبصر النّور للدّفاع عن القضية اللّبنانيّة. نحن مع كلّ ما هو لبنانيّ وضدّ كلّ ما يُضير القضية اللّبنانيّة من قريب أو بعيد». وقد تلا هذا الكلام تحقيق متلفز عن تدريبٍ عسكريٍّ لشباب متطوّعين من حدّادين وسنكريين وحتى من فنّانين كانوا كلّهم منتمين لهذا الحزب. كان الفيديو يشبه لقطاتٍ مضحكةً كون المتدرِّبين الجدد يفشلون عند القيام بتمريناتهم، وهم يدفنون رؤوسهم في التّراب. هؤلاء الكتائبيُّون أنفسهم زوّروا نتائج الياس طالبين منه أن يُحَضِّر حقائبه ويهاجر. عند وصوله إلى باريس، تسجّل الياس في ستّ كليات مختلفة: في الحقوق، في التّاريخ، في الآداب الشّرقيّة، في العلوم السّياسية، في الهندسة، وأخيرًا في الآداب الحديثة. لا أفهم كيف تمكّن الياس من مراكمة كلّ هذه

الكلّيات، ولكنّني وجدتُ في أوراقِ أمّه كُلَّ بطاقاته الطّالبيَّة. كما وجدتُ بينها بطاقة أخرى: بطاقة الحزب الشّيوعيّ الفرنسيّ. كان يمضي أغلبَ أوقاته في مكاتب هذا الحزب، يحضّر للثّورة، ثورته هو معقدُ كلِّ آماله: تحرير فلسطين المحتلّة. كان المناضلون الفرنسيّون، رجالًا ونساءً يعبُدونه. كاريزميٌّ، وسيمٌ يتكلّم الفرنسيّة بلهجة لبنانيّة «بتتّاكل». وهو الوحيد العارف في شؤون «الجيوبوليتيكا» الشرق أوسطيّة. سريعًا بدأ يُصحّح للحزب بياناته الصّحفية الّتي تتناول القضية اللّبنانيّة والنّزاع الإسرائيليّ الفلسطينيّ. وفي وقت فراغه يقرأ ماركس وباكونين ولينين. يدوّن ملاحظات قراءاته وأفكاره على ورقة: «كلُّ المجتمعات المتقدّمة لها أساس اجتماعي واحد: العائلة الأحادية، الزّواج، ورباط الزّوجين، والأولاد. البلدان الحديثة تمنع تعدّد الزّيجات تطبيقًا لقانون المستعمِر... المرأة تطالبُ بحرّيتها لتحقيق ذاتها، كما أنّ القاصرةَ الّتي تواعِدُ الرّجل تعتبر نفسها راشدة. ومن هنا يشعر الرّجل بارتباك يجبره على طرح أسئلة حول الزّواج نفسه.

هذا اعتراف بكون المرأة راشدة وحرّة وثورية إلى أقصى الحدود. وأن تحريرَ المرأة يدعونا إلى تحريرها اقتصاديًا قبل أي شيء.

في السّرير، كما أخبرتني إحدى عشيقاته، بعد أربعين سنة، كان إلهًا. ما زالت تذكر تفاصيل ليلة الحبّ تلك: «كان ناعمًا، مُلمًّا في هذا الميدان».

كانت كلّ واحدة من عشيقاته تحلم بشيء واحد، تمضية ليلةٍ ثانيةٍ معه وثالثّةٍ لتصبح أخيرًا رفيقته الرّسمية. لم يملك الوقت لذلك. كان يحبّ النّساء، كان حبّهن على رأس قائمة أولويّاته، يراسِلُهنّ مدّة طويلة، كيف لا؟ وهو يطمَح إلى الثّورة، والثّورة تقف بوجه المغامرات العاطفية. «الغرام للبورجوازيين!» كتب ذات مرّة بخط عريض على أحد دفاتره إلى جانب أفكار أخرى عن «ماذا يعني أن تكون شيوعيًا؟»

«تحليل كيمياويّ للمرأة»:

المرأة نموذجًا:

- ميزات جسدية:

تلتهب من لا شيء | تبرد في لحظة | تذوب إذا عُوملت بلباقة | هي مريرة جدًا إن لم تُعامل برِقّة.

- ميزات كيمياوية:

تعطي أهمّيّة كبرى للذّهب، للمال، للبلاتين، وكل أنواع الأحجار الثّمينة | ردّ فعلها شرس إن تُركَت وحدَها | يتبدّل لونُها قد تميلُ إلى الزبرجدي إن جلَسَتْ جوارها امرأةٌ أجمل.

- أمكنتها المفضّلة

في أي مكان يجتمع فيه الرّجال.

- وظائفها

الجمال بفروعه | مفيدةٌ، تحفّزُ على طردِ المزاجات العكرة | ممتازة في إعادة توزيع الثّروة | فعّالة في تقليص المداخيل.

تحذير

متفجّرة! التّعاطي معها بحذر!

«عودوا إلى بلادكم!» | باريس | ١٩٧٥

درَسَ أهلي الفرنسيّة في المدرسة. أمّي تجيد الفرنسيّة أمّا أبي فأقل. يُصرِّف الأفعال بصيغة المصدر، وينهي جمله بكلمات لبنانيّة: «أنا أشرب القهوة كتير بكّير أنا» يعني «أنا أشرب القهوة باكرًا».

بعد أن نام أهلي بعض اللّيالي في الفندق، وفي المدينة الجامعيِّة في بيت لبنان، وَجَدا شقةً في شارع دي شوازي عند «الصّينيّين» كما تقول أمّي. وقد رجعتْ إلى هذه البناية لتلتقط صورًا لباب المدخل الّذي يزيزق، للدّرج الخشبي الّذي يتفتفت، وهاتف البناية الدّاخلي المحطّم وترسل الصّور لي بالواتس أبّ.

فهي لا تهدأ، تتابع حواراتنا المسجّلة بالتّعليق والإضافات والملاحظات عبر الواتس أبّ. بعد استلامي الصّور كتَبَتْ: «سكنّا هنا يا سبيل!» كأنّها تؤكِّد بأنّها بدأَتْ من لا شيء، أو تقريبًا في هذه المدينة.

كان جدّي لأبي قد أعطاهما حفنةً من المال قبل سفرهما. وهو الّذي اغتنى في غانا «بطريقة ملتوية» كما ذكر لي أبي: إنَّ جدَّك هو الوحيد من اللّبنانيّين في أفريقيا الّذي

خسر من المال أكثر ممّا ربح في تلك المغامرة الإفريقية، «كنتَ ستحبُّه كثيرًا» أضافت أمّي. ماتَ بعد أيّامٍ من ولادتي كأنّه كان ينتظر أن يتأكّد أنّني بصحّة جيّدة ثمّ يرحل من هذا العالم. صورتان هو كلّ ما بقي منه. واحدة بجلّابيّة مقلّمةٍ وحذاء من الجلد الأسود. شعره طويل أشيب ممشّط إلى الوراء، بشَرته بيضاء وهو متكئ على سيارة من ذلك الزّمن، بدت لي فخمة وملكه. يبتسم أمام الكاميرا. يبدو سعيدًا. أمّا الصّورة الثّانية فبدا فيها مسنًّا عرفته بالكاد كأنّه رجل آخر، يلبَس مِبذلًا وعلى ملامحه بدت مشقّات الحياة. حكت لي أمّي أنّه في آخر حياته لم يقُم بأيّ شيءٍ سوى شربِ البيرة من الصّباح إلى المساء حتّى صار مُدمنًا.

ما إن حطّتِ الحقائبُ في شقّتهما الجديدة حتى بدأ الجدار يهتزّ. ضرباتٌ رجراجة تلعلع وامرأة تصرخ: «عودوا من حيث أتيتم!» ارتعبت أمّي وأجهشت. أمّا أبي فكان بودّه أن يضحك لكنّه تمالك خوفًا من أن لا تتحمّل أمّي مزاجه ومن يدري قد تصفعه، فغمرها كي تهدأ وظلّت الضّربات تتوالى بقوّة أكبر، فخافت أمّي من انهيار الجدار. إذ لاحظت من زيارتها الأولى ضحالةَ سماكته وهي لم تفهم كيف لهذا المبنى أن لا ينهار. «عودوا من حيث جئتم!» تَعُرُّ الجارة حدّ تمزيق حبالها الصّوتية، وتحتمي أمّي بصدر أبي وهي تبربر «بدّي ماما وبدّي بابا» ثمّ علا صوتها.

- بدّي أبي وأمّي!

- عودوا من حيث جئتم!
- أريد أبي وأمّي!
- عودوا من حيث جئتم!
- أريد أبي وأمّي!
- عودوا من حيث جئتم!

لـم تتوقّـف الجـارة عـن العريـر. ليلـة مـن أصـل ثـلاث وطـوال السّـنة حيـن عـاش أهلـي «عنـد الصّينيّيـن» ظلّـت هـذه المـرأة تحضّهـم علـى العـودة مـن حيـث أتـوا. أحيانًـا فـي الممشـى كان أهلـي يصادفـون زوجهـا الّـذي بـدأ يعتـذر عـن عـدم قدرتـه علـى فعـل أي شـيء، كـون زوجتـه مجنونـة. اليـوم، بعـد مـرور سـنواتٍ علـى هـذه الواقعـة، أفكّـر أنّ الجـارة كانـت بـلا شـكّ علـى حـقّ حيـن نصحتهـم بالعـودة مـن حيـث أتـوا.

بداية الحرب في لبنان | ١٩٧٥

كان أهلـي مـا يزالـون فـي لبنـان يـوم ١٣ نيسـان ١٩٧٥ عندمـا مـرّ بـاصٌ فـي حـيٍّ مسـيحيّ ينقـل فلسـطينيّين فأطلـق الكتائبيّـون عليهـم النّـار. وكان هـذا الحـادث قـد جـرى فـي اليـوم نفسـه بعـد أن انهمـر الرّصـاص علـى كنيسـة حيـث قُتـل أحـدُ حـرّاس بيـار الجميّـل. وكان أبـي يتحضّـر لتقديـم مسـرحيته فـي بيـروت فتأجّلَـت. هكـذا فـي كلّ مـرّة كان أبـي يسـتعدّ لتقديـم مسـرحيةٍ تقـع حـوادث تمنعـه مـن تقديمهـا. ذات مسـاء بـدأ الجمهـور

يتضارب والقصة ذاتها تتكرر: أنصار الفلسطينيّين ضدّ خصومهم، وأبي في وسطهم يريد تخبيط كلِّ العالم.

هذا الحدث يُعتبر اليوم بداية الحرب في لبنان، أمّا يوم وقع فاعتُبرَ إضافةً طفيفةً إلى يوميّات العنف. فالتّراشق بالرّصاص والنّزاعات خبز لبنان اليومي مذ تزعّم ياسر عرفات منظمة التّحرير الفلسطينيّة واستقرّت في البلد مع محاربيها وفدائييها إثرَ طردِهم من الأردنّ.

إن اتفاق القاهرة السّرّي الموقّع في ٣ تشرين الثّاني ١٩٦٩ بين وفد يترأسُه العماد إميل بستاني قائد الجيش اللّبنانيّ وبين منظمة التّحرير الفلسطينيّة منح المقاومة الفلسطينيّة حقّ الاعتداء من الأراضي اللبنانيّة وبذا شّرّع وجودها كجيشٍ وانتشرت الفوضى في البلد.

طرحتُ السّؤال على أبي فهو لم يترك مجلّدًا عن تاريخ لبنان يعتب عليه: «لماذا قَبِل العماد بستاني توقيع هذا الاتفاق؟» كان جوابه ناصعًا: «المال». من السّهل تصديق كلامه فالمسؤولون اللّبنانيّون معتادون على الدناءة أي بيع بلادهم مقابل حفنة من الدّولارات. لم يكن أحدٌ يتوقَّع أنّ هذه المناوشات المتقطّعة ستسفرُ عن حربٍ تطول زهاء خمسة عشر عامًا. كان أهلي مثل بقيَّة المواطنين يقولون: «بعد شهرٍ سينتهي كلُّ شيء». بعد خمسةَ عشرَ يومًا من وصول أهلي إلى باريس أقفل مطار بيروت، ولعلع الرّصاص في حرمه. دخل ثلاثة مسلّحين مدجّجين بالأسلحة الرّشاشة

حرمه وأطلقوا العنان لرصاصهم. كانت الحصيلة قتيلين وستةَ عشرَ جريحًا. هل كان الهدفُ خطفَ طائرة أو تفجيرًا ما؟ لا أحد يعرف. ككلِّ الحوادث الّتي وقعت في لبنان خلال تلكَ الفترة كانت غايةُ العمليَّات مجهولةً وفاشلة. كان بعض المختلّين عقليًا والمشعوذين فدائيي يوم الأحد يتحوّلون فجأةً إلى مقاتلين في ميليشيات من صنع أيديهم، يأخذون فيها القرارات وحدهم دون أيِّ تحضير ويقحمون أنفسهم في معارك مسلّحة.

إنّه أبي الّذي أعلن لأمّي خبر تسكير المطار؛ يذهب كلَّ يوم إلى البيت اللّبنانيّ في المدينة الجامعية للحصول على الجرائد العربيّة.

وحين يرجِع إلى الشّقة يخبرُ أمّي بعض أخبار البلد. حين